حروف من النار والنور

قراءة في قصيدة عروس الجليل لغازي القصيبي

■ د/ خالد فهمي-مصر



(١)

يوشك المتأمل لمسيرة الشعراء العرب المعاصرين على اختلاف أطيافهم، وتنوع انتماءاتهم، أن يخرج بحقيقة مؤداها أن خدمة قضية فلسطين كانت شغلهم الشاغل..

ولستَ تشك لحظة في ذلك الذي طفر في مفتتح هذه الورقة، ولا سيما إذا ما زاحمتك أصوات محمود درويش، ومحمود مفلح، ونازك الملائكة، وأحمد محرم، ومحمود حسن إسماعيل، وعبدالرحمن العشماوى وغازي القصيبي وغيرهم.

ويمثل رحيل غازي القصيبي (١٩٤٠-٢٠١٠م) عن دنيانا فرصة لإعادة فحص منجز جيل كامل من الشعراء العرب المعاصرين في تعاطيهم مع قضية الوجود العربي المعاصر الكبرى، في أصعب لحظة ترفع لافتة الانكسار والضياع، مرت على تاريخ العرب المعاصرين.

فغازي عبدالرحمن القصيبي ابن مرحلة تفتّح وعيه فيها على قصيدة الضياع، فكانت أول إدراكات هذه الحقبة التي ملكت على من نعتهم التاريخ فيما بعد وسمّاهم جيل الستينيات، وهم يدلفون نحو شبابهم بعد أن طعنت طفولتهم بسكين القدس سنة ١٩٤٨م!

(٢)

وتأتى قصيدة غازي القصيبي (عروس الجليل) التي نظمها في الشابة الفلسطينية الشهيدة (آيات الأخرس) عام ٢٠٠٢م، لتعكس بعضا من الروح العربية الإسلامية التي سكنت شعر الراحل الكريم.

جاءت القصيدة بموضوعها ومعجمها وبنائها المعاصر لتؤكد عمق البناء الفكري المنتمي لشاعرنا.

تصور القصيدة بوحي من شهادة آيات الأخرس موضوعا ظاهر الدلالة على تكوينه الثقافي، وموقعه العملي الراصد لأمراض الواقع العربي في مستوى بعينه، الذي أحسن في تعريته، وكشف مخازيه.

وتتنازع القصيدة قائمتان، إحداهما للأفعال المضارعة التي تستحضر صورة النور الذي جلل مشهد الشهيدة، ليفرض نفسه، وليظلل بسلطانه، وحضوره الطاغي بدءًا من مطلع القصيدة:

يشهد الله أنكم شهداء

يشهد الأنبياء والأولياء

وهو الأمر الذي يستمر مع نهايات القصيدة:

تلثم الموت وهى تضحك بشرا

ومن الموت يهرب الزعماء.

ولعل في هذا الاستحضار عبر معجم الفعل المضارع.. ما يعيد النظر في مسألة عنوان

الرثاء الذي رفع منذ زمن، وأطلق على مثل هذا النوع من القصيدة؛ فالقصيدة هنا روح أعلى من روح الرثاء والفقد.

ومن جهة أخرى تعلو نسبة استعمال الفعل الماضي عند تصوير حالة السقوط والخزي الذي صبغ الوجوه العربية الخائنة، والعاجزة، ويعلو صوت القصيدة عندما يعم هذا الاستعمال، وتغطى كل الشرائح المقابلة لقائمة الشهداء المجللين بالفخار والعزة.

أيها القوم نحن متنا فهيا

نسمع ما يقول فينا الرثاء

قد عجزنا حتى شكا العجز منا

وبكينا حتى ازدرانا البكاء

وركعنا حتى اشمأز ركوع

ورجونا حتى استغاث الرجاء

واستمرت هذه القائمة استمرارًا باعثا على تفجير الآلام، مستفزا لنخوة الرجال في عبارات من مثل: (و شكونا/ ولثمنا حذاء/أنفت أن تضمنا الغبراء).

وفي المرات القليلة التي جاءت فيها الأفعال الماضية مسندة إلى آيات، كانت لتحقيق اليقين في جلال مآلها، متعانقة في الوقت نفسه مع بعض الأفعال المضارعة، لتدل على استمرار النعيم الذي حازته في مثل قوله:

فتحت باب الجنان وحيت

وتلقتك فاطم الزهراء

(٣)

وقد كان طبيعيا أن ترتفع في القصيدة، وهذا موضوعها نسبة ما يسمى بصوت الحكمة.

وصحيح كذلك أن نرى من وراء هذا الصوت الحكيم الذي سكن غير بيت من القصيدة.. ملامح من النار والنور معا، ملامح من نار الغضب على ما حل بالقدس، وملامح من نار الغضب اللازم لافتكاكها، متعانقة مع قناديل النور الذي يشع من الحق الظاهر في صف الإسلام والعروبة على هذه الأرض، وأنت واجد هذه النار وهذا النور معا في مثل:

حين يدعو الجهاد يصمت حبر

ويراع والكتب والفقهاء

ويقول كذلك:

حين يدعو الجهاد لا استفتاء

الفتاوى يوم الجهاد الدماء

ففى هذين البيتين يسطع نور من الحكمة، هي بنت بارة لثقافة أصيلة للشاعر الراحل، انسربت إليه من أرض طالما روت شعراءها أنهار الحكمة خلال مسيرة طويلة جدا، كان للإسلام فيها أثر ظاهر في تشكيلها.

(٤)

وفي ملمح مهم من ملامح عصرية القصيدة في شعر غازي القصيبي، في هذا النموذج الذي ندلل به على انتماء الشاعر لعروبته وإسلامه، يتجلى استثماره لتقنية توظيف الشخصيات التي توزعت على عمودين يتنافران ويتضادان ظاهرا، ويتآزران ويتعاضدان في بنية القصيدة عمقا وباطنا.

تظهر الشخصيات الدينية (الأنبياء/الأولياء/ فاطمة الزهراء) لترقى بجلال الشهيدة؛ بما تحصله من هذه الرموز، بما تراكم حولها من نور وجلال، وبريق، وإيمان يحقق لصورة آيات الأخرس في الوجدان المعاصر المتلقي للقصيدة أعلى مستوى من مستويات القبول والفخار.

وفي الجانب الآخر تظهر رموز الشر (طواغيت بيت أبيض/شارون) ليحقق من ورائها فضح ممارسات ضارة بالقضية.

وحول هذين النوعين من الشخصيات تدور قوائم من معجمين يتعاوران على البنية الفكرية في القصيدة؛ حيث يدور معجم ذو ملامح رومانسية (وجدانية) من مثل (شهداء/ربى/ربوع/الإسراء/عروس/البكاء/الرثاء/العوالي/الفداء/الحسن/الحسناء/الجنان).. وهي جميعا تطمح للشعور بجلال القضية، والشعور بجلال المنصفين والمضحين من أجلها، والطموح نحو الارتباط بها وبهم معا.

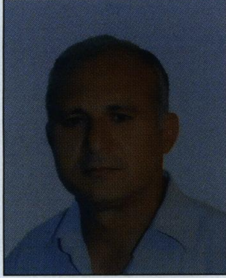
وفي الجانب الآخر، تظهر مفردات مثل: (يهرب/ المجرم/يخصي الفحول/تضج/طواغيت/الظلماء/الغبراء/انتحرنا/أموات/اشمأز) لتصنع نفورا مقصودا من أرباب التنكر للقضية الذين ركنوا لصف التفريط فيها.

في قصيدة غازي القصيبي عن آيات الأخرس علامات عروبة ظاهرة، سكنت معجم الشاعر، وتعاطت مع قضاياها الكبرى. وفي القصيدة كذلك علامات إسلام تصبغ حقا بصاحب قضية لن تنتصر بغير صوت الجهاد.

كان غازي القصيبي فيما أبدعه من شعر حول القدس وفلسطين يغرف حروفه من النار والنور.

غازي القصيبي روائيا

■ سميرأحمد الشريف-الأردن



رحم الله فارس الكلمة والموقف، الاستثنائي الذي جمع المواهب، صاحب الحضور الذي ترك بصمة واضحة على عمله وكتاباته ومواقفه الحياتية، العلم الفرد في حياتنا الثقافية، صاحب الحضور الجميل والمقنع والموجع في تاريخنا الأدبي.

فتح في الرواية أبوابا ظلت مغلقة.. وتجاوزت المألوف والعادي في طرحه وتناوله، وحفر في الواقع الاجتماعي والفكري والسياسي، وترك في كتاباته روحا مرحة وأسلوبا ساخرا جميلا.

غازي القصيبي، الرجل الذي جمع رجالا في شخصه وفكره وخلقه، ومجموعة مبدعين فيما ألفه وأصدره، فكان له مذاقه الخاص سياسيا وشاعرا وروائيا، جريئا في طرحه، عميقا في تناوله، حاملا آمال أمته وهمومها.

يحار المرء وهو يتملى سيرة الرجل الذي شهد له المقربون بالمودة والإنسانية؛ لم تشغله المناصب، ولم تأخذه بهرجة الأضواء، ظل يحفر عميقا لمداواة جراح أمته.. كاشفا معاناتها.. مضيئا مشاعل نهضتها.

كان رائدا وجريئا في الرواية على مستوى المضمون والأسلوب، متجاوزا للمسكوت عنه، ويحسب له إضافته النوعية لنفسٍ روائي جديد في الساحة الروائية السعودية لم تكن من قبل.

محطة القصيبي الإبداعية ستتوقف عندها الأجيال والدراسات، فرغم تنوع مضامينه وعمقها، لم يكن جاف الأسلوب.. متقعر اللغة..